

ملحق

العناصر، والاكتمال الدلالي التام . فلسنا بحاجة لما قبله وما بعده، وما يكمن فيه من عناصر محددة قد تم تنظيمها حول بؤرة مركزية حتى غدت بنية متماسكة قوية- فلننمغن في هذه العناصر وعلاقاتها.

يبدأ البيت بذكر الخيل، وهي أنسب مواد الكون العربي للاستهلال، فالخيل معقود بنواصيها الخير، وهي علامة الفروسية والنبل والثروة المادية والمعنوية، وهي اسم جنس لا يتمثل في جواد ولا فرس محددة ينحصر فيهما، بل يشمل في العالم الخارجى كل ما يطلق عليه خيل، وهي مناط اعتزاز العربي بعرقه وخيلائه بذاته، وربما كانت ترتبط من الوجهة الإيمولوجية أيضاً ببواعث القوة التي تتجاوز المادة لتعبر عن قدرات الإنسان في التصور والتخيل، فلا بد أن تكون ثمة قرابة في قاع اللغة بين الخيل والخيال، تمر عبر انعكاس الظل السريع على الأرض حتى تصل إلى درجة التجريد عندما يُغمض الإنسان عينيه ويرى الخيال بصيرته . وخيل المتنبى على وجه الخصوص تملك طاقة مثيرة للخيال العربي العريق.

اختار الشاعر كلمته الأولى ووضعها بإيجاز وتركنا نسهر ونسمر عليها، ثم وضع إزاءها كلمته الثانية : الليل، وحشاً في جوفها عنصراً آخر من هذا الكون الذى يجسده، ومع أن اتساق البنية الصرفية والتقفية الداخلية هما أبرز ما يلتفت الانتباه للوهلة الأولى في الجمع بين الليل والخيل - إلا أننا لا نلبث أن نستشعر أن ثمة شيئاً عميقاً يربط بينهما غير هذا النسيج الصوتى القريب، فالخيل هي ظاهر الوجود العربي ومناطق حركته، والليل هو باطن هذا الوجود وسر سكونه . ثم ألا يحمل التشاكل الواضح بين الخيل والليل تشاكلاً آخر خفياً يثير عالم الحب والمستور في حياة الإنسان العربي، لا عن إهمال، بل عن فرط أهمية وحفاوة؟

هل لنا أن نتصور الليل كناية عن المرأة، تحجب ما لا ينبغى أن يذكر، وتقع في تلك المنطقة المبهمة التي يحدث بها الإنسان دون أن يتبينها بوضوح؟ وعندئذ يبرز رابط التشاكل الدلالي في الركوب بين الخيل والليل، مع ملاحظة هامة ؛ وهي أنه لم يقل ذلك صراحة، وإنما أوشك أن يحيلنا إلى الذاكرة الشعرية لنستحضر طرفة بن العبد وهو يعدد لذاته في الحياة ويحصرها في ثلاث : الخيل والمرأة والخمر. بيد أن المتنبى أقرب إلى طبيعة السلوك العربي عندما يضع حجاب الليل على وجه المرأة، فيترك لكل قارئ أن يغنى على ليله وليلاه، إنه بذلك يضمرب الحب ولا يعترف به بل يصبح بوسعه أن يتبرأ منه فليل صاحبنا ليس بالضرورة ليل الصبب العاشق الذى يقول :